نقد المرأة الشعر في الحجاز في القرن الأول والظواهر الاجتماعية التي ساعدت على ظهوره

أ. د. داود سلوم

د. محمد إحمد ربيع(*)

ظهرت في الحجاز بعض الظواهر الاجتماعية في القرن الأول لم تظهر من قبل ولم تظهر من بعد:

١. نقد المرأة الشعر:

لم يجتمع في تاريخ النقد الأدبي العربي حتى في أبهى عصوره هذا التجمع النسائي حيث توجه عدد من النسوة من صفوة نساء قريش وبعض نساء العرب الأخريات إلى نقد شعر الغزل الذي شاع في الحجاز لأسباب سوف نشرحها فيما يأتي. ولعل من أسباب هذا التوجه الحرية التي نالتها المرأة في الإسلام وتضخم شخصيتها بسبب الثقافة التي أتاحها الإسلام لها ونمو شخصيتها واستقلالها. فان نساء قريش قد وجدن من خلال الاطلاع على أدب العصر انه من حقهن تناول هذا الشعر بالنقد ما دام هذا الشعر يدور في معظمه على الغزل. فقد تعرضت المرأة للشعراء ومقدار إصابتهم القول في وصف حقيقة نفسية المرأة أو فشلهم في ذلك وان المرأة لأقدر على معرفة ما يرضي طموح المرأة ويرضي غرورها حين يتعرض الشاعر لوصفها أو التغزل بها أو مخاطبتها.وظهر في هذه البيئة الحجازية عدد من النساء

(*) أستاذ مشارك في جامعة جرش الأهلية

الناقدات بالإضافة إلى النساء اللواتي تغزل بهن الشعراء. وقد ترك لنا تاريخ الأدب عددا من هذه الأسماء التي تناولت نقد شعر الغزل وهن:

١. **سكينة بنت الحسين:** وهي أكثرهن ثقافة وأدقهن في تحديد محاسن ومعايب الشعراء وهي راس مدرسة الناقدات العربيات.
٢. **عقيلة بنت عقيل:** وهي شخصية غير محددة ولعل النقاد كنوا باسمها عن ذكر اسم سكينة إكراما لها وتحرجا من ذكرها.
٣. **عائشة بنت طلحة:** وكانت سيدة من سيدات قريش ذات جمال ومال تزوجت عددا من المرات من أغنياء قريش.
٤. **فاطمة بنت عبدالملك بن مروان:** وزوجة عمر بن عبدالعزيز.
٥. **أم حبيب:** تغزل بها نصيب بن رباح.
٦. **غاضرة:** جارية بشر بن مروان.
٧. **قطام:** خطيبة عبدالرحمن بن ملجم.
٨. **عزة:** محبوبة كثير عزة.
٩. **بثينة:** محبوبة جميل بثينة.
١٠. **امرأة عمياء.**
١١. **جارية سوداء.**

وسوف يرد خلال البحث نقد هؤلاء النسوة مفصلا مع الشعراء الذين ناقشناهم في أشعارهم.

٢. شعراء الغزل:

ظهر في الحجاز وما حول الحجاز جماعة من شعراء الغزل الحسي والعذري استقطبت اهتمام المغنين وانضم إليهم كبار الشعراء مثل الفرزدق وجرير وان

هؤلاء الشعراء الحجازيين أمدوا المغنيين بالأشعار التي غنيت فأثارت اهتمام المرأة بهم.

فمن الذين تناولهم نقد المرأة وذكرت أسماؤهم في مجالسهن هم:

١. **عمر بن أبي ربيعه** رأس المدرسة الحجازية.
٢. **جميل بثينة.**
٣. **كثير عزة.**
٤. **نصيب بن رباح.**
٥. **الفرزدق.**
٦. **جرير.**
٧. **الأحوص.**
٨. **محمد النميري.**
٩. **عروة بن أذينة.**
١٠. **ذو الرمة.**

وهناك عدد آخر من الشعراء مثل الحارث بن خالد المخزومي والعرجي وكانت فتيات الحجاز ومثقفات النساء على اطلاع تام على أشعار هؤلاء الشعراء وكان أكثرهن معرفة بهذه الأشعار الناقدات اللواتي تعرضن لنقد هؤلاء الشعراء، ومما يدل على اهتمام المرأة بالشعر الغزلي ما يذكره كتاب الاغاني في رواية عن ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب قالت تحدث أحد أحفاد عبد الله بن مصعب:

" مررت بجدك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر، فقال: ما هذا معك ودعاني فجئت وقلت: شعر عمر بن أبي ربيعه، فقال: ويحك

تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعه إن لشعره موقعا من القلوب ومدخلا لطيفا. لو كان شعر يسحر لكان هو، فارجعي به ففعلت[١].

٣. الغناء:

كان بين مدرسة الغناء في الحجاز وبين ازدياد نصوص شعر الغزل ترابط عجيب، فأن أحدهما كان يؤثر في الآخر، وكان الغناء وسيلة من وسائل شيوع شهرة الشاعر فلذلك فقد شجع الشعراء المغنين على الغناء بشعرهم وحث المغنون الشعراء على النظم في الغزل للغناء به.

وكان موقف الخلفاء والولاة في الحجاز متضاربا من المغنين والمغنيات ولم يكن هذا ليؤثر كثيرا في عدم انتشار الغناء ولا في تقبل المجتمع الحجازي له وان ردود الفعل التي كان يبديها الخلفاء كثيرا ما كانت تنسحب أمام تشجيع أغنياء الحجاز للمغنين والمغنيات.

وكان عبدالله بن جعفر أحد الذين كانوا يبذلون المال الوفير لهؤلاء المغنين وقد كان معاوية يعيب ذلك على عبدالله بن جعفر حتى اسمعه غناء فطرب فقال عبدالله بن جعفر:

" يا أمير المؤمنين إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان فهل ترى به بأسا؟ فقال: لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان "[٢].

وكان ولاة خلفاء بني أمية يشتدون أحيانا من المغنين ويضايقونهم ثم تجدهم سرعان ما يعودون إلى الرضى، دخل عثمان بن حيان المري واليا للوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ إلى المدينة واجل أهل الغناء ثلاثا للخروج منها.

---

(١) الاغاني ١/ ٨٦ طبعة دار الثقافة بيروت .

(٢) العقد الفريد ٤/ ٩ والاغاني٢/ ١٧٤.

" فاخذ ين أبى عتيق سلامة إليه في ثوب زاهدة فقال: اقرئي للأمير. فقرأت، فقال: إحدي للأمير فحركه حداؤها، فقال لها: غبري (أي غني غناء المتصوفة) فاعجب بذلك الوالي، فقال له: فكيف لو سمعتها في صناعتها؟ فغنت فنزل عثمان بن حيان عن سريره حتى جلس بين يديها ثم قال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة، فقال له ابن أبى عتيق: يقول الناس: أذن لسلامة في المقام واخرج غيرها، فقال عثمان: قد أذنت لهم جميعا"[٣].

وكان المغني أحيانا في اختياره غناءه اقرب إلى الشاعر الهجاء والشاعر المداح. فقد اغضب عبدالرحمن بن حسان بن ثابت المغني طويس فغنى لعبدالله بن جعفر وعبدالرحمن حاضر أبياتا في الغزل فطرب القوم وقالوا:

" أحسنت والله يا طويس! ثم قال: يا سيدي أتدرى لمن هذا الشعر؟ قال لا والله ما ادري لمن هو إلا أنى سمعت شعرا حسنا قال: هو للفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فنكس القوم رؤوسهم وضرب عبدالرحمن برأسه على صدره، فلو شقت الأرض له لدخل فيها...."[٤].

وكان الغناء أشبه بالإعلان عن الشاعر أو المرأة بل دخل الأمر باب التجارة أحيانا، " قال مسكين الدارمي وقد تنسك لتاجر عراقي لم يبع خمره السود ما تجعل لي على أن احتال لك بحيلة تبيعها كلها على حكمك؟ قال: ما شئت..... فقال شعرا رفعه إلي صديق له من المغنين فغنى به:

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بزاهد متعبدِ

(٣) الأغاني ٨/ ٣٤١.

(٤) الأغاني ٣/ ٣٢.

فشاع هذا الغناء في المدينة وقالوا: قد رجع الدارمي وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبقى مليحة بالمدينة إلا اشترت خمارا اسود ....."[٥].

وفي سبيل أن ندرك ما أحدثه الغناء في الحجاز من اثر ومقدار إعجاب الناس بالمغنين والمغنيات ورعاية أصحاب الجاه لهم فعلينا أن ننظر في بعض نصوص الاغاني:

خرجت جميلة (مولاة بني سليم) حاجة فخرج معها من الرجال المغنين والنساء والأشراف وغيرهم جماعة وحج معها من القيان مشيعات لها ومعظمات لقدرها ولحقها خمسون قينة وجه بهن مواليهن معها وأعطوهن النفقات، وحملوهن على الإبل في الهوادج والقباب وغير ذلك.

فأبت جميلة أن تنفق واحدة منهن درهما فما فوقه حتى رجعت وتخابر من خرج معها في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظريف والهوادج والقباب فلم ير أهل المدينة مثل ذلك الجمع سفرا طيبا وحسنا وملاحة.

ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز والهذليون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثر ومن غير المغنين عمر بن أبي ربيعه والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وجماعة من الأشراف ودخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغن حاذق ولا مغنية إلا هو معها وجماعة من الأشراف مما سمينا وغيرهم من الرجال والنساء وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم.

فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلسا فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لهما جميعا قالت: ما كنت لأخلط جدا بهزل، وأبت أن تجلس للغناء فقال عمر

(٥) العقد الفريد ٤/ ٩٦.

بن أبي ربيعة: أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج فعزم القوم كلهم على الخروج فخرجت في جمع اكثر من حجها بالمدينة فلما قدمت تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء فدخلت بأحسن مما خرجت منه. وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب منازلهم ينظرون إلى جمعها والى القادمين معها فلما دخلت متزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم، ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين وما استنكف من ذلك كبير ولا صغير فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء فقالت لعمر بن أبى ربيعه إني جالسة لك ولأصحابك وإذا شئت فعد الناس لذلك اليوم، فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء "[٦] فابتدأت جميلة فغنت صوتا بشعر عمر وغنى ابن سريج وسعيد بن مسجع ومعبد وابن محرز والغريض وابن عائشة و (الثنائي): نافع وبديح والهذليون الثلاثة بصوت واحد ونافع بن طنبورة(الملقب نقش الغضار) ومالك وطويس (أبو عبد النعيم) والدلال (أبو زيد) وهيت (الثنائي): برد الفؤاد ونومة الضحى والثلاثي فيد ورحمة وهبة الله.

واستمر المجلس ثلاثة أيام " فلما كان اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت ستارة وأجلست الجواري كلهن فضربن وضربت. فضربن على خمسين وتراً فتزلزلت الدار "[٧] ، ثم غنت عزة و(الثنائي) حبابة وسلامة وخليدة و(الثنائي): عقيلة والشماسية و(الثلاثي) فرعة وبلبلة ولذة العيش والثنائي سعدة والزرقاء " ثم قالت للجماعة: غنوا جميعا[٨]

(٦) الاغاني ٨/٢٠٩.

(٧) المصدر نفسه ٨/ ٢٠٩.

(٨) المصدر نفسه ٨ / ٢٠٩.

وإذا ما وقفنا على هذا النص أحصينا المغنين والمغنيات لظهر لنا عدد المغنين والمغنيات قد بلغ ثلاثة وثلاثين مغنياً ومغنية كما في الجدول التالي:

المغنون	المغنيات
(١) ابن سريج	(١٧) سلامة
(٢) سعيد بن مسجح	(١٨- ١٩) برد الفؤاد، ونومة الضحى (الثنائيتان)
(٣) معبد	(٢٠-٢٢) فند ورحمة وهبة الله (الثلاثي النسائي)
(٤) ابن محرز	(٢٣-٢٤) حبابة وسلامة (الثنائيتان)
(٥) الغريض	(٢٥) عزة
(٦) ابن عائشة	(٢٦) خليدة
(٧- ٨) نافع وبديع (الثنائيان)	(٢٧-٢٨) عقيلة والشماسية (الثنائيتان)
(٩-١١) الهذليون	(٢٩-٣١) قرعة وبلبلة ولذة العيش (الثلاثي النسائي)
(١٢) نافع بن طنبورة (نقش الغضار)	(٣٢-٣٣) سعدة والزرقاء (الثنائيتان)
(١٣) مالك	
(١٤) طويس (أبو عبد النعيم)	
(١٥) الدلال (أبو زيد)	
(١٦) هيت	

أما الأصوات التي غنت في هذا اللقاء الضخم فكانت كالآتي:

عمر بن ابي ربيعه	عمرو بن شاس	كثير	النابغة	عنترة	الأعشى	أصوات لم يغن فيها الشعراء	المجموع
٣	١	١	١	١	١	١٣	٢١

٤- رعاية أهل الغناء:

إن شيوع الغناء كان مرتبطا بالثروة الهائلة التي كانت تصب على قريش والأنصار وكان الشعر مرتبطاً بالغناء حيث كان شعر الغزل يكون المادة لهذا الفن وكان النقد مرتبطاً بهذا الشعر الغزلي حيث كان الشاعر يحسن أو يسيء في التعبير عن عواطف المرأة ومخاطبتها. وكان هؤلاء الكرماء من قريش خلف تلك النهضة الغنائية ومن الكرماء الذين شاع جودهم عبيدالله بن العباس الذي شاطر الحسين بن علي نصف ماله حين حبس معاوية عنه أرزاقه وهو " أول من فعل ذلك في الإسلام "[٩] وأعطى لأعرابي نفقة طريقه إلى الشام لأنه ذبح له شاة كانت كل ما يملك من دنياه وحين لامه غلامه على ذلك وبأنه لا يعرفه قال " إن هذا لم يكن يملك من الدنيا غير هذه الشاة فجاد لنا بها وان كان لا يعرفنا فأنا اعرف نفسي، ارمي بها إليه، فرماها فكانت خمسمائة دينار "[١٠] ووهب هدية معاوية إليه وكانت حللا كثيرة إلى حاجبه بعد أن رآه يطيل النظر إليها "[١١].

وحدث مثل هذا من حديث الشاة مع الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر حين نزلوا على أعرابية وأطعمتهم لحم شاتها بعد أن سقتهم من لبنها ولم يكن معهم شيء فقالوا للعجوز: " نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فأنا

(٩) خزانة الأدب للبغدادي ٣ / ٢٥٧.

(١٠) المصدر نفسه ٣ / ٥٩٣.

(١١) ثمرات الأوراق للحموي ١ / ١٢٩.

صانعون إليك خيراً " ولامها زوجها وألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فرآها الحسن فقال لها: " يا أمة الله أتعرفينني؟ قالت: لا! قال: أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا، قالت: بابي أنت وأمي! ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف درهم، وبعث بها مع غلامه إلى الحسن فأمر لها بمثل ذلك، وبعث لها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين قالت: بألفي درهم وألفي شاة فقال لها: لو بدأتي بي لأتعبتهما بالعطاء، أعطوها عطيتهما "[١٢] وشاع كرم عرابة الاوسي وقيس بن سعد إلى جانب شيوع عبد الله بن جعفر. ورأى عبد الله بن جعفر عبداً اسود في حائط قوم قد رمى برزق يومه إلى كلب جائع فقال له: " يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال ما رأيت! قال فلم آثرت الكلب؟ قال لان أرضنا ليست بأرض كلاب وأخاله قد جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده. فقال: فما كنت صانعاً اليوم؟ قال: اطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر: والله إن هذا لأسخى مني فاشترى النخل والعبد واعتقه ووهب ذلك له ...."[١٣] ففي مثل هذا الجو من الجود والكرم ترعرع الغناء وكان اقرب هؤلاء إلى رعاية المغنين عبد الله بن جعفر الذي فاقت قصص كرمه الخيال حتى حجر عليه في فترة من حياته الخليفة علي بن أبي طالب وترك مؤلف الأغاني في أخباره عن تعلق المغنين بسبب ما يعطي وما يهب، قال: " جلست جميلة يوما للوفادة عليها، وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن والبستهن أنواع الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان وزينتهن بأنواع الحلي ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره ..."[١٤]

(١٢) المصدر نفسه ١ / ٢٤.

(١٣) المصدر نفسه ١ / ١٠٢.

(١٤) المستطرف للابشيهي ٢ / ٣٦.

(وقالت في رسالتها) وبالكتاب نسألك وبحق الرسول ندعوك أن كنت نشيطا لمجلس هيأته لك لا يحسن إلا بك ولا يتم إلا معك فلما صار إلى بابها فنظر إلى ذلك الحسن البارع والهيئة الباذة فأعجبه ووقع من نفسه فقال: يا جميلة لقد أتيت خيرا كثيرا ما لحسن ما صنعت! فقالت سيدي أن الجميل للجميل يصلح، ولك هيأت هذا المجلس فجلس عبدالله بن جعفر وقامت على رأسه وقامت الجواري صفين فأقسم عليها فجلست غير بعيد ثم قالت: يا سيدي ألا غنيتك فقال: بلى فغنت: "

بني شيبة الحمد الذي كان وجهه
يضيء ظلام الليل كالقمر البدر
كهولهم خير الكهول ونسلهم
كنسل الملوك لا يبور ولا يحري
أبوكم قصي كان يدعى مجمعا
به جمع الله القبائل من فهر

ثم دعت لكل جارية بعود، وامرتهن بالجلوس على كراسي صغار قد أعدتها لهن، فضربن وغنت عليهن هذا الصوت وغنت جواريها على غنائها، فلما ضربن جميعا قال عبد الله ما ظننت أن مثل هذا يكون، انه لمما يفتن القلب...."(١٥)

ففي مثل هذا نما الغناء وبعث الشعراء على النظم وكان المال خلف ذلك يحث المغنين على الإبداع والبذخ والترف وكان كرماء قريش وغيرهم يستحثون هؤلاء الإبداع في الغناء والتجويد فيه.

---

(١٥) الأغاني ٨ / ٢٢٧.

٥- النسب القرشي:

سادت قريش بنسب الرسول الكريم قبائل العرب فكانت السلطة السياسية فيها واستولت كذلك على النشاط الفكري في القرن الأول فكان فيها الفقهاء ونبغ فيها الشعراء وتميزت نساء قريش المثقفات في النقد واستمع لهن الشعراء واخذوا بما يردن منهن في متطلبات الفن واصبح الزواج من القرشيات يعد مفخرة للإنسان وكان لكرم الزيجات ما يتم بين الرجل ونساء بني هاشم فقد حاول الحجاج الدخول إلى هذا النسب بزواجه من ابنة عبد الله بن جعفر ولكن الحمية القرشية دفعت عبد الملك بن مروان أن يطلب من الحجاج طلاق ابنة عبد الله بن جعفر فطلقها وكانت نفسها راضية من الزواج إلى رجل مثل الحجاج[١٦].

وتزوج عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان من فاطمة بنت الحسين بعد موت زوجها الحسن بن الحسن[١٧] وتزوج طلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر فاطمة بنت القاسم بن علي بن جعفر بن أبي طالب بعد موت زوجها حمزة بن عبد الله بن الزبير[١٨] وأنقض عمر بن عبد العزيز زواجه من أم هشام زوجة عبد الرحمن بن هشام بعد أن اخبره أخو زوجها بأنها قد " عجلت بالتزوج وبقي عليها من عدتها أربعة أيام "[١٩].

وكانت المفاخرة بالنسب قد حملت الاحوص على مجاوزة قدره ففخر بجده الذي حمته الدبر من أعدائه واحتمله السيل وكانت أم قتلته قد أقسمت لتشربن الخمر

---

(١٦) أخبار النساء ص ٨٣.

(١٧) المصدر نفسه ص ١٤٩.

(١٨) المصدر نفسه ص ١٤٩.

(١٩) المصدر نفسه ص ١٥٠.

بقحف رأسه فقال مفاخرا سكينة التي فخرت بجدها عند الأذان:

فنحرت وانتمت فقلت:

ذريـنـــــي ليـــــس جـــهـــل أتيتـــه ببديـــــــع

فأنا ابن الذي حمت لحمه الدبر، قتيل اللحيان يوم الرجيـــع

غسلـت خالـي الملائكــة الأبـرار، طوبــى لـه من صريع

" فأمر الوليد واليه عمر بن عبد العزيز بجلده لذلك "[٢٠] وكان أوباش العـرب يعادون آل البيت على هذا النسب من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فقد كتب الحسن بن علي رسالة إلى زياد بعد أن استلحقه معاوية: " من الحسـن بـن علـي إلى زياد ".

فغضب زياد إذ قدم الحسن نفسه عليه ولم ينسبه إلى أبي سفيان وكتب إليه: " من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة .... فان احب لحم علي أن آكله للحم الذي أنت منه! " وكان جواب الحسن بن علي: من الحسن بن فاطمـة إلـى زيـاد بن سمية، أما بعد فان رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم قـال: الولـد للفـراش وللعـاهر الحجر والسلام".[٢١]

وقد يعجب الإنسان ما الذي كان يفعله أوباش النـاس فـي سـبيل الانتسـاب إلـى قريش ولا أظن أن كـرم النفس يرضـى لشـخص أن يفعلـه بنفسـه مـا فعلـه زيـاد بـن أبيه في سبيل هذا النسب إذ قبل أن تنسب أمه إلى الزنا من أبي سفيان في سبيل أن ينتمي إلى البيت الأموي[٢٢].

(٢٠) تاريخ الأدب العربي: الدكتور عمر فروخ ج١ ص٦٢٨.

(٢١) رسائل العرب، الرسالة ٣٢، ٣٣، ج١، ص٣٧.

(٢٢) أخبار النساء ص٢١٢.

فقد تربع النسوة القرشيات على عرش النقد الأدبي النسائي لما كن يشعرن به من شرف يؤهلهن بمثل هذا الدور النقدي وكانت سكينة تمتلك النسب الذي يعلو هام الثريا فجدها محمد وجدتها فاطمة بنت محمد وجدها لأبيها علي بن أبي طالب وأبوها الحسين بن علي ومن خلال هذه العزة توجهت إلى الشعراء في نقدها وطلبت منهم أن يخاطبوا المرأة بما يليق بها من الصفات، فسكينة أدركت في ثقافة بيتها التي نزلت فيه سور الكتاب ورتلت فيه أن القرآن اكرم المرأة وحفظ لها حقها في الحياة فأرادت من الشعراء أن يقدروا المرأة وان يحترموها كما احترمها الإسلام وقد اخذ نسوة جيلها عنها هذا الموقف الذي انعكس في نقد نساء البيت الأموي ونساء قريش الأخريات ومن تأثر بهن من بقية النسوة.

٦-الشعراء والناقدات:

تعرض بعض الشعراء إلى النقد اكثر من تعرض غيرهم، وذلك فإننا سوف نسلسل الشعراء حسب المادة النقدية التي توفرت حول شعرهم.

أ- كثيرعزة:

كان كثير عزة اكثر الشعراء الذين تعرض لهم النسوة في النقد ويبدو أن المرأة العربية كانت تعجب بهيكل الشاعر قبل شعره في أن يكون جميلا نحيلا له خصائص العاشق والمتوله فان قول عمر ابن أبي ربيعة:

قد عرفناه وهل يخفى القمر

يحمل مضمون ما أردنا قوله وان الشعراء الذين لم يمرضهم العشق ولم ينحليهم فكان يظن بهم الكذب في العشق ولذلك فان ابن قيم الجوزية في كتابه أخبار النساء يقول:

" وأما أهل الدعاوى الباطلة، التي ليس أجسامهم بناحلة ولا الوانهم بحائلة ولا عقولهم بذاهبة فهم عند ذوى الفراسة يكذبون(٢٣) " وقال مرة أخرى: " والعرب تمدح أهل النحول وتذم أهل السمن والجسوم وتنفيهم عن الأدب، وتنسب أهل النحول إلى المعرفة وحسن البيان وأهل السمن إلى الغباوة وبعد الأذهان"(٢٤).

وكان كثير لا يغري جسمه المرأة ولا تتمناه، فقد كان قصيرا يبلغ طوله عدة أشبار وترك ذلك عليه أثرا نفسيا، فقد كان جافيا لا يحسن مخاطبة المرأة أو مجاملتها وان ظهر عكس ذلك من شعره وانه تمدح بصفاته واظهر إعجاب المرأة به وإكبارها له، إضافة إلى ذلك فان عقيدة كثير كانت مشبوهة فهو من الكيسانية الذين يقولون بالرجعة والرجعة مذهب قد يقترب من عقيدة الهنود التي تقول بالتناسخ وانتقال روح الإنسان من جسد إلى جسد.

والمرأة بشكل خاص لا يهمها من الرجل إلا منظره وقد لا تعطي أهمية للمخبر إذا كان منظره يجذبها إليه.

ولعل في مناقشة غاضرة (جارية بشر بن مروان) ما يوضح ذلك كل الوضوح، فهي قد سخرت منه اكثر مما سخرت من شعره. " قال السائب راوية كثير، والله أني لأسير يوما مع كثير حتى إذا كنا من المدينة على أميال لقيتنا امرأة في رحالة متنقبة معها عبيد لها يسعون معها فمرت جنابي فسلمت فقالت: ممن الرجل؟ قلت: من آهل الحجاز، فقالت: فهل تروي لكثير شيئا؟ قلت نعم، قالت: أما والله ما كان في المدينة من شيء هو احب الي من أن أرى كثيرا واسمع شعره، فهل تروى قوله:

(٢٣) أخبار النساء ص٦٠.

(٢٤) المصدر نفسه ص٦٢.

أهاجك برق آخر الليل واصب

قلت: نعم، فأنشدتها إياها إلى آخرها، قالت: فهل تروي قوله:

كأنك لم تسمع ولم تر مثلها

تفرق آلاف لهـن حنينـي

قلت: نعم، وأنشدها، قالت:

فهل تروي قوله أيضا

أأطلال سعدى باللوى تتعهد

قلت: نعم، وأنشدتها حتى أتيت على قوله:

فلم أر مثل العين ضنت بمائها

علي ولا مثلي على الدمع يحسد

قالت: قاتله الله، فهل قال قول كثير أحد على الأرض؟ والله لان أكون رأيت كثيرا أو سمعت منه شعره احب الي من مائة ألف درهم.

قال السائب: فقلت هو ذاك الراكب أمامك، وأنا السائب راويته، فقالت حياك الله ثم ركضت بغلتها حتى أدركته فقالت أنت كثير؟ قال مالك ويلك، فقالت أنت الذي تقول:

إذا حسرت عنه العمامة راعها

جميل المحيا أغفلته أند واهن

والله ما رأيت عربيا قط أقبح ولا أحقر ولا ألأم منك قال: أنت والله اقبح مني وألأم قالت: ألست القائل:

تراهن إلا أن يؤدين نظـــرة

بمؤخر عين أو يقلبن معصما

يحاذرن مني غيرة قد عرفنها

قديما، فما يضحكن إلا تبسمـا

لعن الله من يفرق منك! قال: بل لعنك الله، مـن أنـت؟ قـالت: لا يضـرك إن لـم تعرفني، قال: والله إني لأراك لئيمة الأصل والعشيرة.

قالت: حياك الله يا أبا صخر، ما كان بالمدينة رجـل احب الـي وجـها ولا لقـاء منك، قال: لا حياك الله، ولكن ما على الأرض أحد ابغض الي وجها منك!

قالت: أتعرفني؟

قال: اعرف انك لئيمة من اللئام، ثم تعرفت إليه فإذا هـي غـاضرة أم ولـد بشـر بن مروان[٢٥]".

ولعل في مداعبة غاضرة له تفسير في موقف النساء الساخر من قصـرد، وربما قبحه وفضاضته.

وفي مجالس سكينة بنت الحسين التي حضرها كثير أشارت إلى هنات فنية في قصور كثير عند تصويره نفسية المرأة، وفي إحدى مجالس سكينة للشعراء خرجت جارية لها فقالت:

أيكم كثير؟ أأنت القائل:

أعجبني يا عز منك مع الصبا

خلائق صـدق يا عـز أربـــع

---

(٢٥) الأغاني ١١ / ٤٨

دنوك حتى يذكر الذاهل الصبا

ورفعك أسباب الهوى حين يطمع

وانـك لا تدريـن دينا مطلتـه

أيشتـد مـن جـراك أو يتصـدع

ومنهن إكرام الكريم وهفوة(م)

اللئيـم وخـلات المكـارم تنفـع

أدمت لنا بالبخل منك ضزيبة

فليتك ذو لونين يعطـي ويمنـع.

قال: نعم، قالت: ما جعلتها بخيلة تعرف بالبخل ولا سخية تعرف بالسخاء:. وفي الأغاني أنها قالت له أعطاك الله مناك[٢٦]" وتعليق سكينة يعيب كثيرا في انه لم يغلب طبيعة على أخرى والإنسان في الأعم الأغلب له مزاج واحد غالب على سلوكه ولعل التناقض في السلوك ينم عن الخبث والملق والكذب.

وفي مجلس آخر من مجالس سكينة مع الشعراء" إن سكينة بنت الحسين قالت لكثير حين أنشدها قصيدته التي أولها:

أشاقك برق أخر الليل واصـب

تضمنه فرش الجبا فالمسارب

تألق واحمومى وخيم بالربـى

أحم الذرى ذو هيدب متراكب

(٢٦) الموشح ص٢٠٢ والأغاني ١ / ١٩٦

إذا زعزعته الريح أزرم جانـــب

بلا خلف منه وأومض جانـب

وهبت لسعدى مـــاءه ونباتـــــه

كما كل ذي ود لمن ود واهـب

لتروى به سعدى ويروى صديقها

ويغـدق أعداد لــه ومشـارب

قالت: أتهب غيثا؟ جعلك الله والناس فيه أسوة؟ فقال: يا بنت رسـول الله صلـى الله عليه وسلم: وصفت غيثا فأحسنته وأمطرته وأنبته و أكملته ثم وهبتـه لـها فقـالت: فهلا وهبت لها دنانير ودراهم...."(٢٧).

ولعل سكينة أعرف بنفسية المرأة وما تحب أن تعطـى. فالمـال مـا زال مغريـا للمرأة اكثر من الكلام المعسول والقول الذي لا يخلف شيئا.

وفي مجلس آخر من مجالسها قالت له: أنت القائل:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامـــــر

لعزة من إعراضنا ما استحلت

فما أنا بالداعي لعزة بالجـــــوى

ولا شامتٍ أن نعل عـزة زلّت

وكنت كذي رجلين: رجل صحيحة

ورجلٍ رمى فيها الزمان فشلت

---

(٢٧) المصدر نفسه ص١٨٨.

قال: نعم: أحسن الله إليك[٢٨] وسكينة تمتدح فيه وفاءه لعزة وإجلاله لها وكأنها تقول قد أصبت في قولك هذا.

وفي مجلس من مجالس عقيلة بنت عقيل وهي غير معروفة تماما فيما كانت بنت عقيل بن أبى طالب فعلا أو أن الاسم كان كناية عن سكينة نفسها. إلا أن تعليقها على شعر الشاعر لا يشبه أسلوب سكينة في النقد الهادئ المتزن.

" قيل (لعقيلة): هذا كثير عزة والإحوص بالباب، فقالت: ائذنوا لهما ثم أقبلت على كثير فقالت: أما أنت يا كثير فألام العرب عهدا في قولك:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلى بكل سبيل!

ولم تريد أن تنسى ذكرها؟، أما تطلبها إلا إذا مثلت لك أما والله لو لا بيتان قلتهما ما التفت إليك وهما قولك:

فيا حبها زدني جوى كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر[٢٩]

وان عقيلة لا ترى في قوله: " أريد لأنسى ذكرها " عشقا ولا حبا وكأن كثيرا يريد أن يقول: بعيدة عن العين بعيدة عن القلب وهذا في رأى عقيلة ــ وهي مصيبة ــ ليس من الحب ولا فاعله من أهل العشق الحق والوجد الثابت في القلب.

---

(٢٨) الأغاني ١ / ١٩٦.

(٢٩) الموشح ص١٩٥.

وفي مجلس آخر لها مع جميل بثينة والأحوص وكثير، أمرت فأخرج العذري والأحوص" وأمرت جواريها أن يكتفنه (أي كثيرا) وقالت له " يا فاسق أنت القائل:

أإن زم أجمال وفارق جيرة

وصاح غراب البين أنت حزين؟

أين الحزن إلا عند هذا؟ خرقن ثوبه يا جواري، فقال: جعلني الله فداك إني قد أعقبت بما هو احسن من هذا ثم انشدها:

أأزمعت بينا عاجلا وتركتني

كئيبا سقيما جالسا أتلدد

وبين التراقي واللهاة حرارة

مكان الشجا ما تطمئن فتبرد

فقالت: خلين عنه يا جواري، وأمرت له بمائة دينار وحلة يمانية فقبضها وانصرف "[٣٠] والفارق في العاطفة بين في قوله الأول وقوله الأخير. ففي بيته " أإن زم أجمال " عدم مبالاة بمن يرحل أو بمن يقيم. وان رحيل المحب لا يستوجب الحزن فكان لوم عقيلة له على قوله ذلك وغضبها المداعب له ما يبرره وقد محى عن نفسه اللوم والذم في بيتيه الآخرين اللذين يفيضان بالعاطفة واللوعة والشوق.

" لآتينها فأتاها فقالت قطام لكثير: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه... الحمد لله الذي قصر بك فصرت لا تعرف إلا بعزة فقال: والله ما قصر الله بي فقد سار بها شعري، وطار بها ذكري، وقرب بها مجلسي وطابت نفسي، وأنها كما وصفت ... قالت: والله لم أر شاعرا اقل عقلا، ولا اضعف وصفا منك وهي في ذلك تشير إلى قوله:

(٣٠) المصدر نفسه ص١٩٥.

بأطيب من أردان عزة موهنا

إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

" والله لو فعل هذا بزنجية لطاب ريحها، لامرؤ القيس اشعر منك وأوصف حيث يقول:

ألم تر أني كلما جئت طارقا"(٣١).

وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد تعرض كثير بسبب هذا البيت إلى نقد كثير وسنأتي على ذكره، ولعل قطام هي أول من سجلت هذا الاعتراض على كثير وكانت قطام تشير إلى أن العطر الذي يخفي رائحة المرأة الكريهة لا يتغزل به فهو اقرب منه إلى هجاء المرأة. ومن النساء اللواتي تناولن شعر كثير بالنقد (عزة) التي عرف الشاعر بها وكانت ترى في بعض صوره ما لا يليق بهما كعاشقين أو كانت ترى في شعر الشعراء الآخرين ما هو أجود من شعر كثير وكانت أحيانا ترد عليه ادعاءه ومبالغته في لقائه بها أو وعدها له قال كثير:

ألا ليتنا ياعز كنا لذي غنى

بعيدين نرعى في الخلاء ونعزب

نكون لذي مال كثير مغفل

فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

إذا ما وردنا منهلا هاج أهله

إلينا فلا ننفك نرمى ونضرب

---

(٣١) الموشح ص١٨٦.

فقالت عزة: أردت لي الشقاء الطويل، ومن المنية ما هو أوطأ من هذه الحالة "[٣٢] وهي أبيات وصفت في عيار الشعر لابن طباطبا بأنها من الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم، ولا شك في إن ملاحظة ابن طباطبا جاءت معتمدة على احتجاج عزة الصارخ على هذه الصورة التي فيها من عذاب المحبين اكثر من عزلتهما في ظروف هانئة سعيدة. وفي خبر يروي احتجاجات عزة في الموشح قال: " دخلت يوما عزة على كثير متنكرة فقالت: انشد أشد بيت قلته في حب عزة قال: قلت لها:

وجدت بها وجد المضل قلوصه
بمكة والركبان غاد ورائح

فقالت: لم تضع شيئا قد يجد ناقة يركبها! فأطرق ثم قال:

وجدت بها ما لم يجد ذو حرارة
يمارس حمات الركى النوازح

فقالت له: لم تضع شيئا، قد يجد هذا من يسقيه!

فاطرق ثم قال:

وجدت بها ما لم تجد أم واحد
بواحدها تطوى عليه الصفائح

فضحكت ثم قالت: إذ كان ولا بد فهذا!!!"[٣٣] وكانت عزة في هذا ناقدة فذة حقا فهناك من ألوجد والحزن ما ينسي إذا وجدنا بديل ما فقدناه من الحاجات المادية ولكن

---

(٣٢) المصدر نفسه ص١٨٩.

(٣٣) المصدر نفسه ص١٨٣.

أين البديل لمن يموت واحدها؟! وكان عليها أن ترضى بهذا الوجد الدائم حين يجده الشاعر بها الذي يشبه وجد الثكلى التي فقدت واحدها.

وفي صورة من الصور الفنية المقارنة تفضل عزة قول الأحوص على قول كثير قال:" دخل كثير عبدالرحمن على عزة فقال: ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس، قال: ولم ذلك؟ قالت: لأني رأيت الأحوص ألين جانبا عند القوافي منك في شعره وأضرع خدا للنساء وانه الذي يقول:

يا أيها اللائمي فيها لأصرمها

أكثر ولو كان يغني عنك إكثار

أقصر فلست مطاعا إذ وشيت بها

لا القلب سال ولا في حبها عار..

فقال لها كثير: والله لقد أجاد، فما استجفيت من قولي؟ قالت: فذلك قولك:

وددت وبيت الله انك بكرة

هجان واني مصعب ثم نهرب

كلانا به عر فمن يرنا يقل

على حسنها جرباء، تعدي وأجرب

نكون لذي مال كثير مغفل

فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله

علينا فما ننفك ننفى ونضرب

ويحك لقد أردت في الشنعاء ما وجدت أمنية أوطأ من هذه؟ فخرج من عندها

خجلا[٣٤] وكان كثير قد يتهم ويدعي ما لم يفعلـه، وينقل روايتـه السـائب خبرا مـع عزة تلومه فيه عزة على ذلك قال السائب: خرجت مع كثير وهو يريد عبدالعزيز بن مروان، فمررنا بالماء الذي فيه عزة فسلمنا جميعا علـى أهل الخباء، فقالت عـزة: عليك يا سائب السلام ثم أقبلت على كثير فقالت: ألا تتقي الله أرأيت قولك:

يآية ما أتيتك أم عمـــرو

فقمت بحاجتي والبيت خـال

ويحك! خلون معك في بيت قط؟ فقال: لم أقله ولكني الذي يقول:

فأقسم لو أتيت البحر يوما

لأشرب ماء سقتني من بلال

وأقسم أن حبك أم عمـرو

لـدى جنبي ومنقطع السعـال

فقالت: أما هذا فعسى..."[٣٥]

ويبدو أن عزة وبثينة وغيرهما لم يكن يقـابلن عشق الشـعراء بالعشـق إنمـا بالمودة والملاطفة وابتغاء الشهرة بشعر الشـاعر فقد كـانت عـزة تحـاول أن تمتحـن الشاعر في أقواله وعواطفه وتحاول أن تكذبه فيها ولا تقبل منه إلا الشعر الذي يؤكد على منعها العطاء ورفضها حب الشاعر ولا أظن في هذا ما يمكـن أن يسـمى عشـقا من جانب المرأة فقد كان اغلب العذريين اشد تعلقا بالمرأة من المرأة بهم، ولعـل هـذا الخبر الطريف يكشف هذه العلاقة بين الشاعر والمرأة قال:

---

(٣٤) ذيل زهر الآداب ص١٥٠ وانظر الموشح ص١٨٩ وفي قول عزة في الخبرين خلاف قليل.

(٣٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٤٦.

" خرج كثير إلى مصر وعزة بالمدينة فاشتاق إليها فقام إلى بغلة له فأسرجها، وتوجه نحو المدينة لم يعلم به أحد. فبينما هو يسير في التيه بمكان يقال له: فيفاء خريم إذا هو بعير قد أقبلت من ناحية المدينة في أوائلها محامل فيها نسوة وكثير ملتثم بعمامة له، وفي النسوة عزة، فلما نظرت إليه عرفته وأنكرها وقالت لقائد قطارها: إذا دنا منك الراكب فاحبس، فلما دنا كثير حبس القائد القطار فابتدرته عزة فقالت: من الرجل؟ قال: من الناس! قالت: أقسمت قال: كثير قالت: فأين تريد في هذه المفازة؟ قال ذكرت عزة وأنا بمصر فلم اصبر أن خرجت نحوها على الحال التي ترين!

قالت: فلو أن عزة لقيتك فأمرتك بالبكاء كنت تبكي؟ قال نعم: فنزعت عزة اللثام عن وجهها وقالت: أنا عزة، فان كنت صادقا فافعل ما قلت! فأفحم فقالت للقائد قد قطارك، فقاده وبقى كثير مكانه لا يحير ولا ينطق حتى توارت، فلما فقدها سالت دموعه وانشد يقول:

وقضينا ما قضينا ثم تركتني
بفيفا خريم قائما أتلدد
تأطرن حتى قلت بوارحا
وذبن كما ذاب السديف المسرهد

قول لماء العين أمعن لعله
لما لا يرى من غائب الوجد يشهد
فلم أر مثل العين ضنت بمائها
علي ولا مثلي على الدمع يحسد

وبين التراقي واللهاة حـــــرارة

مكان للشجى ما أن تبوخ فتبرد[٣٦]

وهي لا تفتخر بشعره الذي قاله فيها عموما و إنما كانت تفتخر بالشعر الذي وصفها فيه بالبخل أو بمعنى آخر بعدم حبها الشاعر لأنها لو كانت تحبه لما كانت تبخل عليه بشيء إلا إذا كان ذلك تظاهرا يفرضه عليها المجتمع أو عفة مصطنعة أو كما ندعوه اليوم كان نفاقا اجتماعيا حين تفعل المرأة ما لا تصرح به وتصرح بغير ما تفعل وفي هذا الخبر ما يكشف ذلك وهي تحاور الخليفة قال: " وفدت عزة وبثينة على عبدالملك بن مروان فلما دخلتا عليه انحرف إلى عزة وقال لها: أنت عزة كثير قالت: ليس لكثير بعزة ولكني أم بكر الضمرية قال: أتروين قول كثير فيك:

لقد زعمت اني تغيرت بعدها

ومـن ذا الذي ياعز لا يتغيـــر

تغير جسمي والخليقة كالتــي

عـهدت، ولم يخبر بسرك مخـبر

قالت: لست اروي هذا، ولكني اروي غيره حيث يقول:

كأني أنادى صخرة أعرضت

من الصم إذ يمشي بها العصم زلت

---

(٣٦) الشعر والشعراء ص٣٤٦- ٣٤٧.

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة

فمن مل منها ذلك الوصل مت(٣٧)

ويبدو أن كثيرا والشاعر العذري عموما كان اكثر إخلاصا للمرأة ولعل شهرته بها جعل يحرص على أن يعرف عنه تعلقه بتلك الواحدة فقط حفاظا على شهرته بها قال:

" بعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد إلى كثير فقالت له: يا ابن أبي جمعة ما الذي يدعوك إلى ما تقوله من الشعر في عزة وليست على ما تصف من الحسن والجمال؟ لو شئت صرفت ذلك إلى غيرها ممن هن أولى به منها أنا أو مثلي فأنا اشرف وأوصل من عزة، وإنما جربته بذلك فقال:

إذا ما أرادت خلة أن تزيلنا أبينا وقلنا الحاجبية أول

سنوليك عرفا أن أردت وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوصل

لها مهل لا يستطيع دراكه وسابقة في الحب ما تتحول

فقالت عائشة: والله لقد سميتني لك خلة وما أنا لك بخلة وعرضت علي وصلك وما أريد ذلك وان أردت ألا قلت كما قال جميل بثينة:

ويقلن انك قد رضيت بباطل

منها، فهل لك في اعتزال الباطل

ولباطل ممن احب حديثه

أشهى الي من البغيض الباذل

ولرب عارضة علينا وصلها

بالجد تخلطه بقول الهازل

(٣٧) أخبار النساء ص٤١.

فأجبتها في الحب بعد تستر

حبي بثينة عن وصـالك شاغلـــي

لو كان في قلبي قدر قلامة

حـب وصلتك أو أتتك رسائلي[٣٨]

ولعل عائشة بنت طلحة كانت راغبة فعلا في الشهرة فأرادت مواصلة الشاعر على ذلك ولكن عجز كثير أن يخاطب نقاط الضعف في الأنثى جعلها اقرب إلى النفرة منه إلى القرب أو حب التقرب منه وكانت عائشة قد تعلق بها الشاعر الحارث بن خالد المخزومي ولعلها أرادت منافسة عزة وبثينة في الشهرة التي حصلتا عليها.

وفي حوارات ونقاش بين الشاعر وعدد من النسوة لم يسمين تتكرر بعض الملاحظات السابقة. فالنص السابق مع عائشة يروى له مع أم بثينة التي لامته على الشعر الذي قاله لعائشة وفضلت جميل عليه في الأبيات نفسها التي ذكرناها في الخبر[٣٩]، وورد الخبر الذي روي له مع قطام مرويا عن المرأة اعترضت على تطيب عزة كما وصفها الشاعر وقالت له: " فض الله فاك أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب رائحتها إلا قلت كما قال سيدك امروء القيس:

ألم تر أني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وان لم تطيب[٤٠]

ويروى في الموشح الخبر الذي كلمت به قطام كثيرا بصيغة أخرى وعن امرأة لم يذكرها الرواة قالت:

(٣٨) الشعر والشعراء ص٣٤٤.

(٣٩) كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص١٩٧

(٤٠) الموشح ص١٨٤.

" قد والله رايتك فما أخذتك عيني "[٤١] مع بقية الخبر الذي ورد فيه قول قطام للشاعر ونلحظ في الخبر الذي ذكرناه ازدراء المرأة للشاعر بسبب قصره وضآلة جسمه. ويروى خبر التبخر بالمندل الرطب وعيب الناقدات ذلك عليه عن امرأة عمياء قال له:

ويحك يا هذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك، لطاب ريحها، هلا قلت كما قال سيدك امروء القيس "[٤٢] وفي هذا الخبر اختلفت رواية الشعر وروي هكذا:

وما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارهــــا
بأطيب من فيها إذا جئت طارقا
وقد أوقدت بالمجمر الرطب نارها

وورد الخبر الذي روي عن عقيلة بنت عقيل ولومها الشاعر على عدم الحزن عند فراق الأحبة ونعيب الغراب مرويا عن امرأة مجهولة، قالت له: " إذا لم يكن الحزن عند فراق الجيرة وحنين الإبل فأين يكون؟ "[٤٣]

ويمكن أن نخلص إلى أن حكم المرأة على كثير انه لم يكن ناجحا في غزله أخل بما كان يحب أن يعرضه من خضوع للمرأة ورقة في مخاطبتها.

ب- جميل بثينة:

ومما تبقى من أخبار جميل بثينة في زيارته لمجلس السيدة سكينة بنت الحسين يبدو أنها كانت تفضله على الشعراء العذريين لانه غلبت على شعره الرقة وإظهار

---

(٤١) الموشح ص١٨٤.

(٤٢) المستطرف ١ / ٥٥.

(٤٣) الموشح ص١٩٠.

الخضوع لمن يحب الأماني العذبة والشوق والحنين أبدا حين يأتي على ذكر بثينة وحبها. دخلت جارية سكينة على مولاتها ثم خرجت فقالت:

أيكم جميل؟ قال: أنا قلت: أنت القائل:

لقد ذرفت عيني وطال سفوحها
وأصبح من نفسي سقيما صحيحا

ألا ليتنا كنا جميعا، وان نمت
يجاور في الموتى ضريحي ضريحها

أظل نهاري مستهاما ويلتقي
على الليل روحي في المنام وروحها

فهل لي في كتمان حبي راحة
وهل تنفعني بوحة لو أبوحها؟

قال: نعم قالت: بارك الله عليك، وأنت القائل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما
قتيلا بكى من حب قاتله قبلي؟

أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها
وأهلي قريب، موسعون ذوو فضل

فيا رب إن تهلك بثينة لا أعش
فواقا ولا أفرح بمالي ولا أهلي

ويا رب أن وقيت شيئا فوقها
حتوف المنايا، رب واجمع بها شملي

قال: نعم، قالت: أحسنت، احسن الله إليك!

وأنت القائل:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى، إني إذن لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد
ويا ليت أيام الصبا كن رجعا
ودهرا تولى يا بثين يعود.
وإذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب قالت: ثابت ويزيد
وان قلت ردي بعض عقلي اعش به
تناءت وقالت: ذلك منك بعيد
فما ذكر الخلان، إلا ذكرتها
ولا البخل، ألا قلت سوف تجود
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد
ليموت الهوى مني إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها ويزيد

قال: نعم، قالت: لله أنت جعلت لحديثها ملاحة وبشاشة، وقتيلها شهيدا، وأنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني
بثينة لا يخفى علي مكانيا

قال نعم: قالت: لقد رضيت من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم قال: نعم، ثم دخلت الجارية على مولاتها، وخرجت ومعها مدهن فيه غالية ومنديل فيه

كسوة وصرة فيها خمسمائة دينار. فصبت الغالية على رأس جميل حتى سالت على لحيته، ودفعت إليه الصرة والكسوة وقالت: ابسط لنا العذر أنت أشعرهم، وأمرت لأصحابه (من الشعراء الذين حضروا المجلس) بمائة مائة[٤٤].

وفي تعليقها على المقطعات ورضاها عنها وفي قولها" أنت أشعرهم " إقرارا بأن سكينة كانت تفضل جميلا ويذكر صاحب الموشح تعليق سكينة على البيت الأخير كالتالي:

" أ فرضيت من نعم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصم إلا انه لا يخفى عليك كلام بثينة قال نعم... [٤٥] ولعل الشاعر لم يدرك التناقض الذي أرادت سكينة أن تنبهه إليه فكيف للأصم – وهو لا يسمع – يكون ممن لا يخفى عليه كلام من يحب دون الناس؟

ومن المآخذ التي أخذتها عليه عقيلة بنت عقيل قوله:

فلو تركت عقلي معي ما بكيتها

ولكن طلابيها لما فات من عقلي!

ثم قالت:" أنت تطلبها عند ذهاب عقلك [لا بحبك لها] لولا أبيات بلغتني عنك ما أذنت لك وهي:

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل

إلى اليوم ينمي حبها ويزيد

فلا أنا مرجوع بما جئت طالبا

ولا حبها فيما يبيد يبيد

---

(٤٤) الأغاني ١ / ١٩٦.

(٤٥) الموشح ص ٢٠٣.

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيى إذا فارقتها فيعود ![٤٦]

وتقف عقيلة إلى جانب سكينة في تفضيله في قول الأخير، وما أخذته عليه لم يمنعها من الإعجاب بأشعاره الأخرى، فهي إلى جانب جميل أيضا.

وكان بين بثينة وجميل من النقد ما كان بين كثير وعزة، فقد كان لبثينة بعض المآخذ على أشعاره فيها، قال:

" لقي جميل بثينة بعد تهاجر كان بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلا فقالت له: ويحك يا جميل أتزعم انك تهواني وأنت الذي تقول:

رمى الله في عيني بثينة بالقذى

وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فاطرق طويلا يبكي ثم قال: بل أنا القائل:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني

بثينة لا يخفى علي كلامها

فقالت: ويحك، ما حملك على هذه المنى؟ أليس في سعة العافية ما كفانا جميعا؟[٤٧] وبذلك يمكن أن نقول إن مقام جميل في التقويم النقدي كان أعلى مرتبة من تقويم كثير، ولعل لشخصية جميل ومركزه الاجتماعي وغناه أثر في ذلك فان

---

(٤٦) الموشح ص ١٩٢.

(٤٧) الأغاني ٨ / ١٠٤.

العاشق الغني مع غناه وقدرته على الزواج أو التسري يكون اكثر شهرة من العاشق الفقير الذي يعشق واحدة لأنه ليس له القدرة على غيرها فهو مضطر في عشقه وليس مختارا.